رحلة الخط العربي القرآني من العراق إلى الحجاز

- دراسة في الجغرافية التاريخية -

أ.د. صالح فليح حسن العيتي
كلية الآداب – جامعة بغداد

تمتاز الجغرافيا على كثير من فروع المعرفة الأخرى بشموليتها وأتساع أفقها وتكيّفها لتلاحق المستجدات والأحداث ، ولذا فقد نشأت أنواع متعددة وحديثة من فروع الجغرافية ، كانت في بدايتها تدرس في ضمن الجغرافية البشرية . الفرع الرئيسي الذي يقابله بل يكمله على الجهة الأخرى فرع آخر الا وهو الجغرافية الطبيعية . وبعض هذه الفروع نمت وأزدهرت في مراحل زمنية ، ثم أصابها الخمول والنسيان وجفت عروقها ، لكنها بقيت تحتفظ بأهميتها المتحفية التاريخية. ومن تلك الفروع مثلاً جغرافية السلالات والأجناس (الرسوس) التي أزدهرت في مرحلة طغيان التفرقة العنصرية والتمييز العنصري ثم خمدت فلم تعد تجتذب الجغرافيين ، ولم يعد يلتفت إليها مختص بعد أخول أكبر معاقل العنصرية في دولة اتحاد جنوب أفريقيا وسقوطها .

أما من فروع الجغرافية البشرية التي ما زالت تحظى بعناية الجغرافيين – جغرافية الأديان[١] وجغرافية اللغات ولاسيما بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وظهور دول جديدة مستقلة على خريطة العالم لها قومياتها ولغاتها وثقافاتها التي كادت أن تقضي عليها اللغة الروسية سابقاً ذلك الفرع الذي يبحث أحياناً عن توزيع اللغات والمساحات التي تشغلها وعدد الناطقين بها والأقليات التي تتكلمها بل ونشأتها وأصلها وتفرعاتها والطرق التي سلكتها كدليل على حركة المجموعات البشرية وأنتشارها[٢] .

ويحاول هذا البحث تتبع سيرة أحد أدوات لغتنا العربية ، لغة القرآن بل لغة أهل الجنة ، ألا وهو الخط العربي الذي كُتب به لغتنا الخالدة ، وتحديد الأماكن

التي تطور فيها حتى أصبح شكله مستساغاً حتى دُوّن فيه اقدس بل أصدق كتاب على وجه الكرة الأرضية لم ينله التحريف ، ألا وهو كتاب الله العزيز ، الذي قال عنه ربنا الكريم ((**أنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون**)) (٣) .

وسوف لن نتعجل الأمور ونكن من نافلة القول أن يفخر بلدنا العراق بأنه المهد الذي تطور فيه ، وطوّر أهله من السكان العرب هذا الخط ليقدّموه جاهزاً متكاملاً إلى أهل الحجاز ، ولاسيما إلى أهل مكة المكرمة المركز الديني والتجاري للجزيرة العربية ، والتي أختارها الله ليقيم فيها أبونا إبراهيم (عليه السلام) أول بيت وضع للناس يعبد فيه الله وحده ألا وهو البيت الحرام . الذي تتجه إليه قلوب المسلمين وغيرهم ، أستجابة لدعوة أبي الأنبياء ((**ربنا أني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فأجعل أفئدة من الناس تهفوا إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**)) (٤) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبانا إبراهيم (عليه السلام) هو الآخر هاجر من العراق إلى الشام وطاف البلاد حتى أتى مصراً ثم أودع أبنه إسماعيل الذبيح (عليه السلام) وأمه هاجر هذه البقعة المقدسة . فلا غرابة أن يكشف هذا البحث عن هجرة الخط العربي من أطراف العراق الغربية نحو مكة ويثرب في الحجاز ماراً بدومة الجندل ، مجتاحاً خط المسند (خط العرب الجنوبي) مزيحاً له ربما لصعوبة الأخير ومرونة وسهولة الأول .

يفخر العراقيون على العالمين من سكان البشرية على أنهم أول من خط بالقلم وأخترع الكتابة قبل خمسة آلاف سنة ونصف أي منذ عام ٣٥٠٠ ق.م (العصر شبه الكتابي عصر الوركاء) . وهكذا يكون العراقيون هم الذين وضعوا أسس التدوين بل التاريخ ، وكل ما سبقهم هو ما قبل التاريخ يخضع للحدس والتخمين والاجتهاد وليس معتمداً على (وثائق تاريخية) أي قبل عصر الكتابة .

لقد حدث ذلك في إحدى المدن السومرية المقدسة تلك هي مدينة الوركاء التي لا تبعد سوى ٣٠ كم شرق مدينة السماوة مركز محافظة المثنى . ومما يجدر ذكره أن أهل هذه المدينة قدّموا اختراعاً عظيماً للبشرية ألا وهو الدولاب الخزاف (الدوار) الذي نقل صناعة الفخار من اليد إلى الآلة فساعد بذلك على إنتاج أوانٍ

أكثر أنتظاماً وأستواءً . ومما يدعو إلى الدهشة إن هذه الصناعة ظلت متأصلة في هذه المنطقة حتى يومنا هذا . بل تميز الخزف المصنوع فيها بأنه وسّم مرحلة زمنية من عصر ما قبل التاريخ فسمي بها فخار (خزف) عصر الوركاء . ولعل من الأجتهادات التي تبعث عن جذور تسمية العراق أنه كان يعرف بأسم بلاد أورك (الوركاء) ولكن هذا الأسم قد نُسى أو أُهمل كالأسماء القديمة كبلاد سومر أو بلاد أكد أو بلاد بابل . كما يشير إلى ذلك لسترنج[٥] .

وهكذا فقد نشأت الكتابة الصورية في العراق . وتجدر الإشارة أي أن الكتابة الرمزية والأبجدية نشأت على أرض عربية ألا وهي أرض سيناء أو ارض فلسطين[٦] .

ليس هذا إلا توطئة لموضوع بحثنا فهنالك مأثرة أخرى للعرب العراقيين ألا وهي أبتداع وتطوير الخط العربي الذي كتب فيه القرآن الكريم فيما بعد . وهناك مأثرة ثالثة ألا وهي أختراع أو أبتداع الحركات المكملة للخط العربي التي حمّت العربية من اللحن وأسهمت في تقويم النطق العربي . وهي الأخرى جرت على أرض العراق في النصف الأول من القرن الأول الهجري (النصف الأول من القرن السابع الميلادي) .

وهكذا يتبين أن الله تعالى قد حبى هذه الأرض وأهلها ببركات ونعّم لم تتسنّ لغيرها . فلا غرابة أن يعجب هيردوتس بأرض ما بين النهرين . ويطنب الجغرافيون العرب المسلمون بمدح محاسن إقليم بابل وإظهارها (الإقليم الرابع الأوسط) ما بين الأقاليم السبعة .

وسيسلط هذا البحث الأضواء على مسيرة الخط العربي بين الروايات العربية القديمة ، والمباحث الحديثة ، حتى وصل إلى مكة ويثرب . ثم كُتب فيه القرآن الكريم سواء منجماً ، ومجمعاً بعد أن أكتمل وبأشراف الرسول الحكيم (ﷺ).

لقد كان طريق التجارة البرية القديم يمر عبر العراق مكملاً للطريق البحري الذي تسلكه السفن عبر المحيط الهندي ، وربما قادمة من المحيط الهادي والذي ينتهي عند رأس الخليج العربي . ثم يبدأ الطريق البري من الأبلة – التي

ورثتها فيما بعد البصرة – إذ شوهدت في مرفأ المدينة سفن صينية عندما وصلها المسلمون فاتحين ومحررين . ثم يسير هذا الطريق عبر أرض العراق محاذياً أو موازياً لنهر الفرات فيمر بالحيرة وربما الأنبار وعين تمر وهيت ، ويقطع بادية الشام أي تدمر ومن ثم إلى دمشق فسواحل البحر المتوسط[٧] . (لاحظ خريطة رقم ١) . وهذه الطريق هي التي سلكها أبو الأنبياء نبينا إبراهيم (عليه السلام) في هجرته من أور اوكوثي أي حران ثم إلى تدمر وإلى دمشق وبعدئذ إلى فلسطين (لاحظ خريطة رقم ٢) . وقبل أن تقوم المناوشات بين القبائل العربية والحاميات الفارسية (في القرنين الخامس والسادس الميلاديين) على أطراف أرض السواد في العراق قبل ظهور الإسلام بقليل أصبحت هذه الطريق غير آمنة . ولم تستطع دولة الحيرة تأمينها . فأنتقلت طرق التجارة من شرق الجزيرة العربية إلى غربها في نهاية القرن الخامس الميلادي . حيث ظهرت مكة وزعيمها هاشم بن عبد مناف جد الرسول (ﷺ) وأخوته الذين أرسوا قواعد الأيلاف وأخذوا العهد من القبائل فظهرت رحلتا الشتاء والصيف نحو بلاد الشام صيفاً ونحو بلاد اليمن والحبشة شتاءً كما ذكرها القرآن الكريم . وذلك لم يكمن إلا قبل البعثة المحمدية بقرن واحد تقريباً[٨] .

إن هذا التنويه ضروري للإشارة إلى أن التجارة تتطلب الكتابة وتسجيل الحسابات وخاصة في الحواضر والمحطات التي كانت على الطريق والتي سنعالجها فيما بعد .

الكتابة والخط في الجزيرة العربية :

لقد كان للعرب خطهم الذين كتبوا به ولاسيما في دولهم التي قامت في جنوب الجزيرة العربية كسبأ وحمير ومعين ذلك هو خط المسند .

وكان يعتقد الباحثون إن الخط العربي الذي دون فيه القرآن الكريم يعود بأصله إلى خط المسند . وكان يسمى في الجاهلية (الجزم) لأنه جزم من المسند ومن هؤلاء أبن خلدون[٩] . ولكن اكتشاف بعض النقوش الجاهلية المكتوبة بأحد فروع الخط النبطي المتأخر الشبيه بالخطوط العربية القديمة وفي لغة قريبة من العربية أبطل الاعتقاد السابق[١٠] .

"وقد أدت الأكتشافات الأثرية في جزيرة العرب الى التمييز بين نوعين من الخطوط التي كانت مستعملة عند العرب قبل الإسلام .

الأول : الخط العربي الذي دوّن به القرآن الكريم ، الذي يعرف بالشمالي تمييزاً له من الآخر (لاحظ لوحة شكل رقم ١) .

والثاني : الخط العربي القديم في جنوب الجزيرة العربية والذي عرف في المصادر العربية بأسم (المسند)" [١١] (لاحظ لوحة شكل رقم ٢) .

ولعل مما يثير الدهشة كثرة ما عثر عليه من النقوش المدونة بالمسند ليس في بلاد اليمن وأرض الجزيرة فحسب ، بل تجاوز حدود بلاد العرب . فعبر إلى مصر ووصل إلى جزر اليونان وأطراف العراق ، وبذلك ثبت علمياً أن المسند كان معروفاً وشائعاً قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح . فهو أقدم الأقلام الي عرفت في شبه جزيرة العرب .

وقد أمتد استعمال المسند حتى القرن الخامس الميلادي وربما إلى القرن السادس أي أن ذلك الخط قد زال من الاستعمال قبل مجيء الإسلام . أما عن بدايته فهي غير واضحة. ويعتقد أنه مشتق من الفينيقي (لاحظ لوحة شكل رقم ٣).

وقد أختلف في تاريخ أقدم الكتابات المدونة بالمسند . فمنهم من يرجعها إلى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد ، على حين يرجع آخرون بتاريخ أقدم كتابة عثر عليها بالمسند إلى أكثر من ٨٠٠ أو ٧٠٠ سنة قبل الميلاد .

والمسند يتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة ، ولا حركة في الكتابة بها ولا ضبط في أواخر الكلمات ، ولا علامة للسكون أو التشديد ، وقد يكتب الحرف المشدد مرتين ، وتكتب الحروف في الكلمة الواحدة منفصلة ، ولذلك فأن شكل الحرف لا يتغير بتغير موضعه في الكلمة ، ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل ، هو خط عمودي مستقيم ، وتقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، ويمزج بين الطريقتين أحياناً[١٢] .

وتطور القلم المسند في شمال الجزيرة العربية على يد شعوب عربية قديمة إلى مجموعة من الأقلام ، وقد عرفت النقوش التي عثر عليها مكتوبة بتلك الأقلام

بالنقوش اللحيانية والثمودية والصفوية وهي لا تختلف كثيراً عن خصائصها وأشكالها عن خصائص وأشكال المسند ، وقد زالت من الاستعمال قبل الإسلام ، وخلفت لنا عدداً كبيراً من النقوش التي عثر عليها المنقبون في الجزيرة العربية. كذلك تطور المسند في الساحل الأفريقي المقابل لليمن إلى الخط الحبشي الذي أنحدرت منه الخطوط الحبشية كافة .

ولعل في ذلك الأنتشار الواسع لاستخدام المسند ، وما تخلف عنه في أذهان الناس ، ما يفسر لنا ما ذهبت إليه المصادر العربية من الاعتقاد بأن الخط العربي متطور عنه ، ولكن مقارنة كل من الخطين وما يمتاز به كل منهما ينفي ذلك الأعتقاد .

وقد يبدو غريباً أن الكتابة العربية الشمالية ليست متطورة عن المسند ، بعدما كان بين جنوب الجزيرة وشمالها من علاقات ، وبعد انتشار المسند واستعماله في شمال الجزيرة لعدة قرون قبل الميلاد وبعده إلى ما قبيل الإسلام ، ولكن تدهور أحوال اليمن في المرحلة المتأخرة قبل الإسلام ، وطبيعة الخط المسند وفروعه وما تمتاز به من جفاف وأشكال دقيقة وصعبة الرسم . قد تفسر لنا ذلك الإهمال الذي أصاب المسند وانحساره أمام الخطوط المنحدرة من الآرامي ، الآتية من أطراف الجزيرة الشمالية والتي تمتاز بالمرونة والسهولة ، ولاسيما في الكتابة على القراطيس . وربما كان لأهل الكتاب من اليهود والنصارى دور في انتشار بعض فروع الخط الآرامي في بلاد العرب(١٣) .

لقد تبين أن المسند قد ترك تداوله قبل نزول القرآن الكريم بمدة . وقد كتب أو دوّن القرآن الكريم فيما بعد بالخط العربي الشمالي . وللقدامى رأي في تطور الكتابة(١٤) .

وقد جاءت الدراسات والأكتشافات الحديثة لتنفي كل صلة بين الخط العربي الشمالي الذي كتب به القرآن الكريم وبين المسند الذي كان أهل اليمن يكتبون به قبل الإسلام . ولعل ما بينهما من صلة لا يتعدى أنهما اشتقا من أصل سامي واحد قديم . وأشكال حروف الخط المسند تختلف اختلافاً أساسياً عن اشكال حروف الخط العربي(١٥) .

كيف تطور الخط العربي الشمالي ؟

هنالك رأيان في هذه المسألة :

أحدهما قديم يتعلق بالروايات العربية ، وآخر حديث ، يستند إلى تحليل النقوش التي أكتشفت في الجزيرة العربية أو عند أطرافها .

تتركز الرواية القديمة حول ثلاثة أسماء رددها الرواة ، إليهم ينسب وضع الخط العربي ، فينقل البلاذري ما رواه أبن الكلبي عن الشرقي بن القطامي (ت نحو ١٥٥هـ) أنه قال : ((أجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقّة (قرب مدينة هيت) ، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جَدرة ، فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربي على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار)) وينقل أبن النديم نفس الرواية – مع بعض التغيير – عن أبن عباس (ت ٦٨هـ) فيروي أن ((أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان ، وهي قبيلة سكنوا الأنبار ، وأنهم أجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، ويقال مروة وجدلة ، فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الأعجام)) .

وحاول بعض الباحثين المحدثين رد هذه الراوية كلية ، مستنداً إلى ما يبدو في الأسماء من أثر الصنعة والأختراع ، فهي موزونة مقفاة : مرة – سدرة – جدرة ، وهذا يدل – في زعمهم – أنها وضعت وضعاً وليست من نتيجة الصدفة والاتفاق . ومع ما في هذه الأسماء عن أثر للصنعة ، لما فيها من تتابع مقطعي مسجوع ، ومع احتمال كونها مخترعة ، إلا أنه لابد أنها كانت تشير إلى وجود أشخاص ، سواء أكانت أسماؤهم هي هذه ، أم قريباً منها ، كان لهم دور ما في تطور الكتابة العربية[١٦] .

ويلاحظ على الرواية الأولى أنها تشير إلى أفادة الرجال الثلاثة بعد وضعهم الخط العربي من الكتابة السريانية ، وأنهم ((وضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، وقد ذهب بعض المحدثين أستناداً إلى هذا القول – على ما يبدو – الذي لا يدل على الأخذ بل الأستفادة حسب ، وإلى ما يرويه

أبن النديم من أن السريان كان لهم خط يسمى : (أسطر نجالا) ونظيره قلم المصاحف ، إلى أستعارة العرب للخط السرياني واستعماله في كتابة اللغة العربية. وذهب آخرون إلى حد التأثر والافادة ، من دون النقل والاقتباس لكن البحث الدقيق ينفى أن تكون الكتابة السريانية أحدى مراحل الخط العربي ، إذ أن لكل منهما تاريخ تطوره المستقل عن الخط الآرامي[١٧] . (لاحظ شكل رقم ٤)

وهنا يثار تساؤل عن الدور الذي قام به أولئك الثلاثة ، وهل أنهم هم الذين وضعوا الكتابة العربية فعلاً أو أنهم اسهموا بطريقة ما في تطور تلك الكتابة ؟ أما أنهم وضعوا فهذا أمر ينفيه ما تم كشفه من نقوش عربية تعود إلى القرن الخامس أو بداية القرن السادس الميلادي . في أماكن بعيدة عن الأنبار والعراق . كذلك أن وضع الخطوط واختراعها عمل ليس من اليسير نسبته إلى أفراد بأعينهم . والاحتمال الثاني يبدو أكثر انطباقاً على الواقع ، ولعل الدور الذي قاموا به هو أنهم عدلوا الحروف المتداولة آنذاك ، ذات الأصل النبطي حتى تبدو في شكلها العام – ربما – أكثر تشابهاً مع السريانية . فكأن دور الرجال الثلاثة – إذن – كان تسوية الحروف وتنسيقها بحيث تبدو أكثر تنظيماً واستجابة لسرعة الكاتب . أو شيئاً من هذا القبيل[١٨] .

وأما المحدثون فأنهم قد نحوا نحواً آخر بالبحث ، على الرغم من أنهم رأوا تقريباً رأي المصادر العربية مدة من الزمن إلى أن أتيح لهم اكتشاف بعض النقوش الجاهلية المكتوبة بأحد فروع الخط النبطي المتأخر الشبيه بالخطوط العربية القديمة وفي لغة قريبة من اللغة العربية[١٩] .

فقد عثر الباحثون على بضع كتابات عربية على الصخور تعود إلى ما قبل الإسلام ، وبدراسة اشكال الحروف وصورها في تلك الكتابات تمكن الباحثون من معرفة الأصل الذي أنحدرت منه الكتابة العربية . فآخر ما توصل إليه العلماء والمستشرقون على ضوء تلك الاكتشافات هو أن الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي المتأخر ولو قارنا الخط النبطي والعربي القديم وجدنا التشابه والتقارب بين أشكال الحروف واتصال بعض الحروف النبطية الحديثة ببعضها ،

كما هو الشأن في الخط العربي ، والتقارب في المادة واللغة والأسلوب . لاحظ الأشكال ٥، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

أما النبط فهم قوم من الساميين ويسود الآن اعتقاد عام بأنهم قبائل عربية متجولة ، تحضرت واستخدمت الآرامية لغة كتابية لها ، وكانت العربية لغة حياتهم اليومية . وقد أسس النبط في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد مملكة في شمال الجزيرة العربية وجنوب فلسطين وبلاد الشام ، كانت عاصمتها سلع (بترا) الواقعة في وادي موسى بالقرب من معان ، استمرت حتى سنة (١٠٦) بعد الميلاد حين فتحها حاكم الرومان على سوريا واستولى على عاصمتها[٢٠] .

ولما كان نشأة دولة النبط – أساساً – اقتصادية لوقوع بلادهم على طرق التجارة بين جنوب الجزيرة وبلاد الشام ، فقد كانت لها صلات واسعة في المنطقة، وامتد نفوذهم إلى شمال الجزيرة العربية وأطراف الشام وسيناء أيام ازدهار دولتهم.

وكان النبط – أول الأمر – قد استخدموا الآرامية والقلم الآرامي في كتابتهم . وظلت الكتابة النبطية مستعملة بعد زوال مملكة النبط لعدة قرون . وبمرور الأيام طوّر النبط الخط الآرامي ، فأبتعد عن أصله عبر أدوار استغرقت بضعة قرون من الزمن ، حيث تفنى الكتابة النبطية تماماً لتظهر في كتابة أخرى هي الكتابة العربية[٢١] . لاحظ شكل رقم (١٠)

يتبين من العرض السابق أن المحدثين يميلون إلى أن بلاد الشام هي التي تطور فيها الخط العربي الشمالي في دولة الأنباط . إلا أنني أميل إلى أن الخط العربي الشمالي نشأ وأخذ قواعده في حواضر الفرات سواء منها الأنبار والحيرة وبقة قرب هيت . ثم انتقل إلى الحجاز بعد قول طرق التجارة التي أشرنا إليها سابقاً وسنتتبع طرق انتقاله بعدئذ .

ولم يكن النبط هي سكان دولة الأنباط في شمال الجزيرة العربية جنوبي بلاد الشام فحسب . بل أن النبط انتشروا على أطراف الجزيرة العربية وعلى أتساع بادية الشام بما فيها أطراف العراق . فيورد المسعودي محاورة بين القائد المسلم خالد بن الوليد (ﷺ) وبين أبن بقيلة عند فتح الحيرة على النحو الآتي :

وقد ذكر جماعة من سلف من الإخباريين وذوي العلم بأيام العرب منهم هشام بن محمد الكلبي وأبو مخلف لوط بن يحيى وشرقي بن القطامي أن خالد بن الوليد المخزومي (رضي الله عنه) لما أقبل يريد الحيرة في سلطان أبن بكر بعد فتح اليمامة وقتل كذاب بني حنيفة ورأى أهل الحيرة تحصنوا في القصر الأبيض وقصر القادسية وقصر بني ثعلبة وهذه أسماء قصور كانت بالحيرة وهي في وقتنا هذا سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة (هجرية) خراب لا أنيس فيها وبينها وبين الكوفة ثلاثة أميال[٢] .

فلما نظر خالد بن الوليد إلى أهل الحيرة قد تحصنوا منه أمر العسكر فنزل نحو النجف وأقبل خالد على فرس له ومعه ضرار بن الأزور الأزدي وكان من فرسان العرب فوقفا حيال قصر بن ثعلبة فجعل العباديون يرمونها بالحرق فجعل فرسه ينفر فقال له ضرار أصلحك الله ليس لها من مكيدة أعظم مما ترى . فمضى خالد فنزل في معسكره وبعث إليهم أن أبعثوا الينا رجلاً من عقلائكم وذوي أسنانكم أسأله عن أمركم . فبعثوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة لأنه خرج ذات يوم وعليه ثياب خضر من حرير فقال قومه ما هذه إلا بقيلة فسمي ببقيلة . وهو عبد المسيح الذي أتى سطيحا الغساني الكاهن يسأله عن رؤيا الموبدان وأرتجاج الإيوان وما كان من ملوك بني ساسان فأتى عبد المسيح خالداً وله يومئذ ثلاثمائة وخمسون سنة فأقبل يمشي فنظر خالد إليه مقبلاً فقال من أين أقضي أثرك أيها الشيخ ؟

قال من صلب أبي .

قال فمن أين جئت ؟ قال من بطن أمي .

قال فعلام أنت ويلك ؟ قال على الأرض .

قال فبم أنت لا كنت ؟ قال في ثيابي .

قال أتعقل لا عقلت ؟ قال أي والله وأقبل .

قال أبن كم أنت ؟ قال أبن رجل واحد .

قال اللهم أخزهم من أهل بلدة فما يزيدوننا إلا غماً . أسأله شيئاً فيجيب عن غيره .

قال لا والله ما أجبتك إلا بما سألتني عنه أسأل عما بدا لك .

قال أعرب أنتم أم نبط ؟ قال عرب أستنبطنا ونبط أستعربنا[٢٢] .

أن للمحاورة بقية ولكن أقف هنا لا دلل على أن الانباط قد اختلطوا بسكان أطراف الجزيرة العربية في العراق سواء في الحيرة أو الأنبار أو عين التمر أو بقة وغيرها .

أما محمد بن عبد المنعم الحميري فيورد ما يأتي[٢٣] :

((ولما أطمأن خالد بن الوليد (ﷺ) بالأنبار والمسلمون وأمن أهل الانبار وظهروا رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها : فسألهم ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب نزلنا على قوم من العرب قبلنا كانت أوائلهم نزلوها أيام نجت نصر حين أباح العرب فلم نزل عنها .

قال الأصمعي : سئلت قريش : من أين لكم الكتابة ؟ قالوا من الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتابة ؟ قالوا من الانبار وقيل للأنبار من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا :

تعلمنا الخط من أياد وأنشدوا قول الشاعر :

قومي أياد لو أنهم أمم ... أولو أقاموا فتهزل النُعم

قوم لهم باحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والخط والقلم

أما الأدعاء بأنه لم يعثر على وثائق مكتوبة بالخط العربي الشمالي أو نقوش أو بالخط النبطي المتاخر في الانبار أو الحيرة أو المناطق القريبة منها فذلك مردود إذ أنه عثر في الستينيات ١٩٦٦ وقبلها على نقوش صخرية في منطقة عرعر وأبدنة وكانت معاصرة لمدة أزدهار دولة الانباط في وادي موسى في جنوب الأردن . ومن المعلوم إن هذه المواقع تقع على الطريق الواصل بين الحيرة والمدينة المنورة ومكة المكرمة[٢٤] .

طريق سير الخط العربي الشمالي إلى الحجـــاز :

تشير معظم الروايات العربية إلى أنتقال الكتابة من الحيرة إلى مكـــة عـــن طريق دومة الجندل . فيروى أن عامراً الشعبي (١٩-١٠٣هـــ) قـــال ((سـألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتاب ؟ قالوا : من أهل الحيرة وقالوا لأهل الحـــيرة : من أين تعلمتم الكتاب ؟ قالوا : من أهل الأنبار . ويروي هذا الخبر أيضـــاً عـــن يحيى بن جعدبة ، وعن زياد بن أنعم المعافري (ت نحو ١٠٠هـــ) عن أبن عباس وقد سبقت الإشارة إلى رواية الأصمعي .

وتسند المصادر العربية نقل الكتابة من الحيرة إلى مكة وباقي الحجاز إلـــى أفراد بأعيانهم ، يقول البلاذري ((وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بـــن عبـــد الملك بن عبد الجن الكندي ، ثم السكوني ، صاحب دومة الجندل – يأتي الحـــيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانياً ، فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ثم أتـــى مكة في بعض شأنه ، فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد منـــاف أبن زهرة بن كلاب يكتب . فسألاه أن يعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبـــا[٢٤]. ثم أن بشراً وسفيان وأباقيس أتوا لطائف في تجارة ، فصحبهم غيلان بـــن ســـلمة الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ، ومضى إلى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمرو بن زرارة بن عدس ، فسمي عمرو الكاتب ، ثم أتى بشر الشام فتعلم منـــه ناس هناك)) وفي رواية أن بشراً خرج إلى مكة . وتزوج الصهباء بنت حرب بـــن أمية أخت أبي سفيان ، فعلم جماعة من أهل مكة الكتابة .

وفي رواية أبن الكلبي (هشام بن محمد الـــائب) (ت ٢٠٤ هـــ) والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧) أن الناقل لهذه الكتابة من العراق إلى الحجاز كان حرب بن أمية، وكان قدم الحيرة قدمة فعاد بها إلى مكة[٢٥] .

وتجمع المصادر العربية على أن مكان اختراع الكتابة العربية هو الانبـــار، إلا أن النقوش التي أكتشفت في شمال الجزيرة تشير إلى الكتابة تولدت ونمت فـــي شمال الجزيرة في بلاد الانباط ، ثم أتجهت – على مـــا يبـــدو – تحـــت تـــأثير الظروف السياسية إلى الشرق ، ووجدت في الحواضر العربية في العراق المنـــاخ الملائم لأن تتطور وتتأصل وتنتشر في الحيرة وغيرها من القرى العربية .

فأنتشار الكتابة بين عرب العراق قبل الإسلام أمر مسلم به ولاشك فيه ، وأتصال مكة بأهل الحيرة وأهل الحيرة بمكة مسلم به كذلك ، فلا يستبعد إذن أن يكون بعض أهل مكة والمدينة قد تعلموا الكتابة من أهل الحيرة . وأن هؤلاء علموها غيرهم من قريش وغير قريش[٢٦] .

أما زمن نشوء الكتابة العربية وتاريخ أستوائها وانتقالها إلى الحجاز فأن المصادر العربية تربط ذلك بأسماء عدة رجال ، فواضعوا الكتابة ثلاثة نفر من طيء من أهل الأنبار ، وناقلها إلى مكة بشر بن عبد الملك تعلمها من الحيرة أو الأنبار . وأما حرب بن أمية أبو سفيان وأبو قيس أبن عبد مناف تعلموها من بشر بن عبد الملك أو من أهل الحيرة أو من واضعيها . وهذه الرواية تعني أن أنتقال الكتابة إلى الحجاز قد تم قبل الإسلام بجيل أو جيلين[٢٧] .

أما تكملة الخط العرب من حيث التنقيط والتشكيل والاعجام والضبط بالحركات فقد جرت هي الأخرى في العراق وفي البصرة بالذات ولكن ذلك يحتاج إلى بحث آخر .

الهوامـــش :

١ - لاحظ على سبيل المثال :

A) De Fontaines P. Geographic et Religions Gallinand 1928 نقلاً عن مقال (جغرافية الإسلام التاريخية في عصـــر النبـــوة - دراســـة جيوبولتيكية) . د. اسماعيل سرور شلش المنشور في مجلة قضايا عربيـــة عدد ٢ السنة ١٠ شباط ١٩٨٣ (بيروت) .

ب) د. منذر عبد المجيد البدري (جغرافية الاقليات الدينية فـــي العـــراق) رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٧٥ (غـــير منشور) .

ج) د. يوسف يحيى طعماس (التوزيـــع المكـــاني لاســـتعمالات الأرض الدينية في مدينة بغداد) أطروحة دكتوراه قدمت إلى كليـــة الآداب - جامعة بغداد ١٩٩٧ (غير منشورة) .

٢ - أنظر على سبيل المثال :

أ - د. ماجد السيد ولي محمد (لغات العالم - عـــرض جغرافـــي مـــن الوجهة البشرية) مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة - العـــدد ١٣ لسنة ١٩٧٨ .

ب - أنظر كذلك الفصل الثاني عشر من كتاب ج.ف.أنســـت (عـــرض جغرافي للعالم من الوجهة البشرية) ترجمة رمزي يســـي راجعـــه محمد مرسي أبو الليل مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٦٦ .

٣ - سورة الحجر الآية : ٩ .

٤ - سورة إبراهيم الآية : ٣٧ .

٥ - لسترنج (بلدان الخلافة الشرقية) ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عـــواد . مطبوعات المجمع العلمي العراقي - مطبعة الرابطة بغداد ١٩٤٥ ص٤١.

٦ - أحمد سوسه (العرب واليهود في التاريخ) العربي للأعلان والنشر والطباعة ط٢ دمشق ١٩٧٢ .

٧ - لزيادة التفصيل عن هذه الطريق راجع المصدر الآتي :
(الفرات الأوسط - رحلة وصفية ودراسات تاريخية) تأليف الواموسيل ترجمة د. صدقي حمدي والأستاذ عبد المطلب عبد الرحمن داود . مراجعة د. صالح أحمد العلي ود. علي محمد المياح - مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٩٠ .

٨ - م.ج. كستر (الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية) . ترجمة الدكتور يحيى الجبوري - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٦ ، ص٤٣-٤٤ .

٩ - غانم قدوري الحمد (رسم المصحف - دراسة لغوية تاريخية) الطبعة الأولى - لبنان ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٣١-٣٢ .

١٠ - غانم قدوري الحمد - نفس المصدر - ص٣٧ .

١١ ، ١٢ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق - ص٣٨ ، ٣٩ .

١٣ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق - ص٤٠ .

١٤ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق - ص٢٨ .

١٥ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق - ص٣٣ .

١٦ - غانم قدوري الحمد - نفس المصدر ص٣٤ .

١٧ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق - ص٣٥ .

١٨ - غانم قدوري الحمد - نفس المصدر ص٣٦ .

١٩ - غانم قدوري الحمد - نفس المصدر ص٣٧ .

٢٠ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق ص٤٥ .

٢١ - نفس المصدر ص٤٦ .

(+) - الميل العربي = $\frac{1}{3}$ فرسخ أو ما يساوي كيلو مترين . أنظر فالتر هنتس (المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري) ترجمة الدكتور كامل العسلي من منشورات الجامعة الأردنية عمان ١٩٧٠ .

٢٢ - أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (مروج الذهب ومعاون الجوهر) الطبعة الفرنسية باريس - المجلد الأول ص٢١٥ .

٢٣ - محمد بن عبد المنعم الحميري (الروض المعطار في خبر الأقطار) معجم جغرافي تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان - الطبعة الثانية - بيروت ١٩٧٤ ص٣٦ .

٢٤ - الدكتور يوسف محمد عبد الله (ثلاثة نقوش صخرية من عرعر وبدنة) مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء العدد الثاني - اكتوبر ١٩٧٩ ص٦٨-٦٩ .

(-) لاحظ الخارطة رقم (٣) .

٢٥ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق ص٥٢ .

٢٦ - غانم قدوري الحمد - مصدر سابق ص٥٣ .

٢٧ - غانم قدوري الحمد - نفس المصدر ص٥٥ .

المصـــادر :

١ - القرآن الكريم .

٢ - الارياني ، مطهّر علي (مقاطعة جازان في نقوش المسند) . مجلة الأكليل – تصدرها وزارة الأعلام والثقافة اليمنية – صنعاء عـــدد ١ لسنة ١٩٨٢ .

٣ - الحمد، غانم قدوري (رسم المصحف – دراسة لغوية تاريخية) . الطبعـــة الأولى – لبنان – بيروت ١٩٨٢ .

٤ - الحميري، محمد عبد المنعم (الروض المعطار في خبر الأقطـــار) معجـم جغرافي حققه د. إحسان عباس ، مكتبة لبنان الطبعـــة الثانيـــة ، بـــيروت ١٩٧٤ .

٥ - الذيب ، منير (الأبجدية العربية والخط العربي) . مجلة دراسات يمنيـــة – تصدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني ، العدد العاشـــر – صنعـــاء ١٩٨٢ .

٦ - سوسة ، د. أحمد (العرب واليهود في التاريخ – حقائق تاريخية يظـــهرها المكتشفات الآثارية) الطبعة الثانية – دمشق ١٩٧٢ .

٧ - عبد الله، د. يوسف محمد (ثلاثة نقوش صخرية من عرعر وبدنة) مجلـــة كلية الآداب – جامعة صنعاء العدد الثاني – أكتوبر ١٩٧٩ .

٨ - كستر ، م.ج (الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية) ترجمـــة د. يحيـــى الجبوري – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٦ .

٩ - مؤنس ، د. حسين (اطلس تاريخ الإسلام) الطبعة الأولى الزهراء للأعـــلام العربي – القاهرة ١٩٧٨ .

١٠ - المسعودي ، أبوالحسن علي بن الحسين (مروج الذهب ومعادن الجوهـــر) الطبعة الفرنسية – باريس ، المجلد الأول .

١١ - موسيل، إلوا (الفرات الأوسط – رحلة وصفية ودراسات تاريخية) ترجمـــة د. صدقي حمدي والأستاذ عبد المطلب عبد الرحمـــن داود . مراجعـــة د. صالح أحمد العلي و د. علي محمد المياح . مطبوعات المجمـــع العلمـــي العراقي بغداد ١٩٩٠ .